



#### مقدمة:

إن التفاؤل الذي نتحدث عنه هو الذي يولد الهمة، ويبعث العزيمة، ويجدد النشاط، فالمسلم المتفائل متوكّل على الله، أكثر الناس نشاطاً، أقواهم أثراً، كلّ عسير عليه يسير، وكلّ شدّة فرجُها آتٍ و قريب، المسلم المتفائل دائمًا يتوقع الخير، يتسم للحياة، يحسن الظنّ بالله، والله عز وجل بيده مقادير الأمور، وهو سبحانه وتعالى سيكشف الضرّ الذي نزل بالأمة، وسيجعل بعد العسر يسراً، وبعد الضيق فرجاً، وبعد الحزن سروراً.

قال الماوردي: فأما الفأل ففيه تقوية للعزّم، وباعث على الجدّ، ومعونة على الظفر؛ فقد تفأّل رسول الله صلّى الله عليه وسلم في غزواته وحروبها. (نصرة النعيم: 1045).

#### 1- الواقع مريض:

لا يخفى على ذي بصر حال هذه الأمة العظيمة، من اضطهاد وتنكيل، وقتل وتشريد، وسلط للأعداء وتكالبهم، وحشد للحشود وجمع للجند، يصاحب كل ذلك عداء وكيد وحقد وغل لو سُلْطَ على الجبال لأزالها، أو رُميَت به أمةٌ غيرها لأفناها، وتكاد لا تطلع على بقعة من بقاعها إلا ووجدت جرحاً نازفاً، وكلمًّا غائراً، غير أن هذه الأمة لم يخبو يوماً سراجُ حياتها، ولم تغب أبداً ملامحُ أصالتها وعزتها، فكانت على الدوام تتسم في وجه الصعاب، شامخةً في عين الأعاصير..

كيف لا وهي أمة تحمل أطهر رسالٍ وأحكم شريعةٍ وأنبل منهج طلع على هذه البشرية.

#### 2- أمة التفاؤل:

كيف لا وهي أمة خاطبها الله تعالى فقال لها: (وَلَا تَهُنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: 139).

وطمأنها في منهاجها فقال: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِلُوا نُورَ اللَّهِ إِلَّا أَن يُتَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَبِدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التجوية: 32, 33).

وَضَمِّنَ نَصْرَهَا وَعَزَّهَا فَقَالَ: (وَكَانَ حَقًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (الرُّوم: 47). (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر: 51)، (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ) (الأنباء: 105).

وأكَّدَ هَذَا النَّصْر بِقُولِهِ: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتَنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ\*) (الصافات: 171-173).

وَيَقُولُ تَعَالَى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتُكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتُهُمُ الْبُلْسَاءُ وَالْحَرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة: 214).

فَهَذَا كَتَبَهَا يَبْثُتُ فِيهَا الْأَمْل، وَيُنْشِرُ فِيهَا رُوحُ التَّفَاؤل، وَيُمْحِي فِيهَا كُلَّ يَأْسٍ وَقُنْوَطٍ بَلْ وَيَجْعَلُ الْيَأْسَ مِنَ الْمَهْلَكَاتِ فَيَقُولُ:

(وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف: 87).

### 3- نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَفَاءِلًا:

لِيُسْ هَذَا فَحْسَبٌ بَلْ إِنْ رَسُولَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مَثَلًا حَيًّا دَافِعًا لِلصَّعَابِ بِرُوحِهِ الْطَّاهِرَةِ وَمُؤْصَلًا لِحَيَاةِ مَلْهُوْهَا الْأَمْلِ وَالْتَّفَاؤلِ. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَا عَدُوٌّ وَلَا طِبَّةٌ، وَيُعَجِّبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ): **الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ** (مُتَفَقُ عَلَيْهِ)،

وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَمْتَيِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كُذَلُكُمْ) (مُسْلِمٌ: 156).

وَرَوِيَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ) (أَبُو دَاوُدٍ/ 345، وَأَحْمَدٍ/ 7956)، وَصَحَّحَهُ أَحْمَدُ شَاكِرٌ.

وَيَبِشِّرُ بِالنَّصْرِ وَالْتَّمْكِينِ لِدِينِهِ وَشَرِعِهِ الْحَنِيفِ، كَمَا عِنْدَ أَحْمَدَ فِي مَسْنَدِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (لَيَبْلُغُنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتَرَكَ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍّ وَلَا وَبَرٍّ إِلَّا دَخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الْدِيْنُ، بِعِزَّهُ أَوْ بِذُلْلِ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِإِسْلَامِهِ، وَذُلًّا يُذْلِلُ اللَّهُ بِإِكْفَرِهِ) (أَخْرَجَهُ أَحْمَدٌ/ 103، وَغَيْرُهُ).

لِيُسْ هَذَا تَوْجِيْهًا قَوْلِيًّا فَحْسَبٌ بَلْ لَوْ تَتَبَعَنَا مَوَاقِفُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ، فَسُوفَ نَجِدُهَا مَلِيْئَةً بِالْتَّفَاؤلِ وَالرَّجَاءِ وَحَسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، بَعِيْدَةً عَنِ التَّشَاؤِمِ الَّذِي لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ أَبْدًا.

### فَمِنْ تَلْكَ الْمَوَاقِفِ:

مَا حَصَلَ لَهُ وَلِصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُمَا فِي طَرِيقِ الْهِجْرَةِ، وَقَدْ طَارِدُهُمَا سَرَاقَةُ، فَيَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخَاطِبًا صَاحِبَهُ وَهُوَ فِي حَالِ مَلْهُوْهَا التَّفَاؤلِ وَالثَّقَةِ بِاللَّهِ: (لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَدُعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْتَمَتْ فَرْسَهُ - أَيِّ غَاصَتْ قَوَائِمُهَا فِي الْأَرْضِ - إِلَى بَطْنِهِ) (مُتَفَقُ عَلَيْهِ).

\* وَمِنْهَا تَفَاؤلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الْغَارِ مَعَ صَاحِبِهِ، وَالْكُفَّارُ عَلَى بَابِ الْغَارِ وَقَدْ أَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ فَعَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (كَنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقَلَّتْ: يَا نَبِيُّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأَطَأَ بَصَرَهُ رَأَانَا، قَالَ: (أَسْكَنْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانَ اللَّهَ ثَالِثُهُمَا)) (صَحِيحُ الْبَخَارِيِّ: 3922).

\* وَمِنْهَا تَفَاؤلُهُ بِالنَّصْرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَإِخْبَارُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَصْرَعِ رَؤُوسِ الْكُفَّارِ وَصَنَادِيدِ قَرِيشٍ.

\* وَمِنْهَا تَفَاؤلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَفْرِ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَذَكْرُهُ لِمَدَائِنِ كُسْرَى وَقِيْصَرِ وَالْحَبَشَةِ، وَالْتَّبَشِيرُ بِفَتحِهَا وَسِيَادَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا.

\* وَيَقُولُ خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَتَيْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَتْوَسِّدٌ بَرَدَةً، وَهُوَ فِي ظَلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا

من المشركين شدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعوا الله لنا؟ فلقد وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المترشار على مفرق رأسه فيسقط باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنم» (أخرجه أحمد 21371/5/109 وابن حماد 3612/4/244 والنمسائي: 8/204).

وهنا (وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير....) -يزرع في نفسه وفي نفوس أفراد الأمة من بعده أملأاً كبيراً بنصرة الدين وعزه أهله.

ومنها تفاؤله صلى الله عليه وسلم بشفاء المريض وزوال وجعه بمسحه عليه بيده اليمنى قوله: (لا يأس طهور إن شاء الله) (البخاري: 3616)

ولقد عاب النبي -صلى الله عليه وسلم- على الذين يُفرون الناس، ويضعون الناس في موقع الدُّونية والهزيمة النفسية، فقال -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: (إذا قال الرجل: هكذا الناس فهو أهلكم) قال أبو إسحاق: لا أدرى، أهلكم بالنصب، أو أهلكم بالرُّفع. (مسلم: 2623).

#### 4- التفاؤل في حياة الأنبياء الكرام

ومثل هذا ما كان عليه إخوانه الأنبياء صلوات ربى عليهم وسلمته.

\* فهذا نبي الله نوح: عليه السلام -يدعو قومه إلى الإيمان بالله ألف سنة إلا خمسين عاماً، دون أن يمل أو يضجر أو يسام، بل كان يدعوهم بالليل والنهار، في السر والعلن، فرآهم وجماعات، لم يترك طريقاً من طرق الدعوة إلا سلكه معهم أملأ في إيمانهم بالله: (قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيَلَّا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزْدَهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ إِنْتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)) [نوح: 5-9]. ولم يعرف اليأس لقلبه طريقاً دون هدفه العظيم.

فأوحى الله تعالى إليه أنه لن يؤمن معه أحد إلا من اتبعه، فصنع السفينة، وأنجاه الله هو والمؤمنين.

\* وهذا هو نبي الله يعقوب عليه السلام المبتلى بفقد ولديه: حزن عليهم حزناً شديداً حتى فقد بصره، لكن يعقوب -عليه السلام- ظل راضياً بقضاء الله، ولم ييأس من رجوع ولديه، وازداد أمله ورجاؤه في الله سبحانه أن يعيدهما إليه، وطلب يعقوب عليه السلام من أبناءه الآخرين أن يبحثوا عنهما دون يأس أو قنوط، لأن الأمر بيد الله، فقال لهم: (يَا بَنَيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأسُوا مِنْ رَفْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَأسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) (يوسف: 87)، وحقق الله أمل يعقوب ورجاءه، ورَدَّ عليه بصره وولديه.

\* وموسى عليه السلام: حين طاردهم فرعون وجنوده، فظنوا أن فرعون سيدركهم، وشعروا باليأس حينما وجدوا فرعون على مقربة منهم، وليس أمامهم سوى البحر، فقالوا لموسى: (إِنَّا لِمُدْرَكُونَ) (الشعراء: 61). فقال لهم نبي الله موسى عليه السلام في ثقة ويقين: (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعَيَ رَبِّي سَيِّدِنَا) (الشعراء: 62). فأمره الله سبحانه أن يضرب بعصاه البحر، فانشق نصفين، ومشى موسى وقومه، وعبروا البحر في أمان، ثم عاد البحر مرة أخرى كما كان، ففرق فرعون وجنوده، ونجا موسى ومن آمن معه.

\* وكذلك نبي الله أويوب عليه السلام، والذي ابتلاه الله في نفسه وماله وولده إلا أنه لم يفقد أمله في أن يرفع الله الضر عنه، وكان دائم الدعاء لله: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَ رَبَّهُ أَنِّي مَسَنِيَ الضُّرُّ وَأَنَّتِ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (الأبياء: 83). فلم يُخَيِّبَ الله أمله، فحقق رجاءه، وشفاه الله وعافاه، وعوَّضه بما فقده.

\* وهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يقول: (وَمَنْ يَعْنِتُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (الحجر: 56).

هذه هي العبرة إذاً وهذا هو الدرب لكل المستضعفين والمعذبين.

إنه التفاؤل، ذلك السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وفيه تُحل المشكلات، وتُفك المعضلات.

فلو ادلهمت الخطوب وتکالب الأعادي (لَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴿٤﴾).

ولو تجمع العالم علينا وتکالبت قوى الكفر والبغى والعدوان (لَا تَيَأسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴿٤﴾).

\* كيف نیأس والله ربنا الذي بيده ملکوت السماوات والأرض وبيده عز من يشاء وذل من يشاء (فُلِّ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعَزِّزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: 26).

فليس الملك بيد رئيس أو زعيم أو دولة كائنة من كانت، بل إن كل ذلك بيد الله سبحانه وحده.  
كيف نیأس ومحمد صلی الله عليه وسلم رسولنا، وأعظم الكتب دستورنا.

وقف الحاکم العسكري للجزائر بعد مجازر جاوزت المليون، وبقي الشعب الجزائري متمسكاً بأصالته، متحركاً بقرآن وسنته، حتى قال الحاکم العسكري الفرنسي: (ماذا أفعل إذا كان القرآن أقوى من فرنسا) بل أقوى من كل قوى البغي والطاغوت.

ثروا - عباد الله - أن معكم أقوى سلاح على وجه الأرض؛ لأنه سلاح تعمير الأرض لا تخريبها، إحياء الموتى لا قتل الأبراء، الحكم بالعدل وليس إشاعة الظلم، التحلی بالعفة لا التدني بالخسنة، التكافل بين الأغنياء والفقراء ليس الحقد والسرقة والاعتداء، الأمان لا الخوف، البر لا الظلم، الإحسان لا الطغيان، السكينة لا الضغينة، التواضع لا الكبر والخيلاء، وحق لمنهج هذه بعض معالمه أن يقود وأن يسود، وأن تتحرك به في هذا الوجود؛ حتى يسطع نوره على أهل الغواية والجحود.

كيف نیأس ونحن نرى التاريخ عبر مسیرته الطويلة يؤكد ألا بقاء لقوى العدوان والظلم والفساد، ويقول ربنا سبحانه: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا تَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (الإسراء: 58).

فالأمل الأمل يا أهل سوريا الأبطال.. والتفاؤل التفاؤل فالله ناصرنا، وبعد الضيق فرج، وبعد العسر يسر ولن يغلب عسر يسرىن.

يُفِيضُ مِنْ أَمْلِ قَلْبِي وَمِنْ ثَقَةِ \*\*\* لَا أَعْرِفُ الْيَأسَ وَالْإِحْبَاطَ فِي غَمَّ  
الْيَأسُ فِي دِينِنَا كُفْرٌ وَمَنْقَصَةٌ \*\*\* لَا يُنْبِتُ الْيَأسَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْفَهْمِ

نَسَأَ اللَّهُ الْعَظِيمَ أَنْ يَسْتَعْمِلَنَا وَلَا يَسْتَبْدِلَنَا وَأَنْ يَفْرَجَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ وَأَنْ يَجْعَلَ نَصْرَنَا عَاجِلًا مَؤْزِرًا وَعَاقِبَةً أَمْرَنَا خَيْرًا

آمين آمين آمين.

المصادر: